

الأدب العربي والبيئة
أ.م.د. عبدالرحمن حميد ثامر
كلية المعارف الجامعة/ قسم اللغة العربية

المقدمة:

اللهم يسر وأعن، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وبعد:
فإنّه من المؤسف حقاً أن تكون أمنيّاتنا متأخرة، لكي نجعل لأدبنا العربي شخصية
جديدة، تبعده عن مفهوم اقتصراره على الغزل والمديح والنواح، وتجعل له سمات مميزة
تواكب مستجدات العصر، ويعالج الموضوعات المهمة في المجتمع المعاصر، والتي
أصبحت تحتل الصدارة، مثل موضوع البيئة. وبذلك نسهم حقاً في تمجيد الأدب العربي
وإحياء مفاخر العرب الذهنية، ولتمثل حلقة من تلك السلسلة التي صاغها العلماء البررة
من أمة العرب.

وهذا لن يتيسّر لنا بمعزل عن التوجه إلى دراسة متأنية في مجالات موضوع
البيئة، وما يحيط بها من مؤثرات.

فمعطيات هذا الموضوع تمثل انعكاساً لأحوال البيئة على الإنسان أو العكس.
والذي نسعى إلى تأكيده ما يعكس أسبقية تعاطي موضوع البيئة عند العرب،
في الوقت الذي نجد العالم يتوجّه اليوم لحماية البيئة ؛ لأنها تمثل حياة الإنسان
وتتمحور حوله. وهي تمثل بشكل أو بآخر المكونات الثقافية والاجتماعية، حتى بدأ
الاهتمام يتزايد بالبيئة والخوف من الأخطار المحدقة بها بفعل الإنسان وتطور الحياة.
ولم نتناول الموضوع في عصر معين للأدب، لأنّ البيئة هي محيط الإنسان في
كل زمان ومكان. والبحث محاولة لإظهار دور الأدب العربي في القضايا المهمة،
وتقليل فجوة الفهم بين العلم المعاصر، وبين أهداف الأدب العربي الذي يُعدُّ بحق مناراً
وفكراً للأجيال. ((فالأدب متصل بطبيعته اتصالاً شديداً بأنحاء الحياة المختلفة سواء
منها ما يمسّ العقل وما يمسّ الشعور وما يمسّ حاجتنا المادية))^(١).

(١) في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، مطبعة الاعتماد - مصر ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م: ١٤..

ولعلّ هذا التوجه هو ما يؤكد عليه الإسلام الحنيف، والله هو خالق البيئة والإنسان لغاية واحدة ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة: ٧) والأرض وما عليها تشكل البيئة الطبيعية، والإنسان ليس في معزل عن هذه البيئة، وأخذ بالأسباب لعمارة الأرض والعيش فيها، واستغلال الثروات المتاحة له بقوة الله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥).

ولعلّ هذا التوجه لدراسة الأدب يرضي الطائفة المستتيرة من الشباب، أدباء المستقبل، وهذا ما نهدف إليه أيضاً من البحث.

البيئة لغة واصطلاحاً:

لغة: البيئة عند علماء اللغة مشتقة من باء (بوا) يقال بواً فلاناً منزلاً: أي أنزله فيه، وبواً المنزل له بمعنى أعدّه وجهّزه، وتبواً بالمكان أي نزله وأقام به. ويقال: إنه لحسن البيئة، أو إنه باء ببيئة سوء (١).

وقد ورد ذكر البيئة في القرآن الكريم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرًا لِلْعَمِلِينَ﴾ (العنكبوت: ٥٨).

اصطلاحاً:

والبيئة اصطلاحاً بمداهها الشمولي يدور حول مجموعة النظم الطبيعية والاجتماعية التي تعيش فيها الكائنات وتمارس فيها نشاطها، وتستخدم فيها مقومات حياتها. ويشمل العوامل الخارجية عن ذات الإنسان وكل ما يحيط به سواء بشكل مباشر أو غير مباشر (٢).

وإذا كان مصطلح البيئة أخذ المعاني الكثيرة باتجاهات متعددة، وفي أطر متنوعة، فهذا لا يعنينا، لأنّ البحث هدفه أن يسهم في إبراز صورة مشرقة لأدبنا العربي

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، باب الألف، فصل الباء فالواو، مادة (ب و أ)، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ، ط١، بيروت، لبنان: ١: ٤٢.

(٢) ينظر: الإنسان والبيئة (رؤى بيئية تربوية) د. عبد المجيد حميد الكبيسي، دار الاصدار العلمي، ط١ - ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، الأردن عمان: ٤٧-٤٨.

الخالد، إذ تنبّه إلى أثر البيئة في الإنسان قبل أن تبرز هذه المصطلحات الحديثة حول البيئة من التلوث، أو الحفاظ على البيئة لغاية تطور الإنسان وحرصه على استغلال الموارد في البيئة المحيطة به، يسعد بها ويستثمرها لصالحه.

المبحث الأول : تأثير البيئة

(١) البيئة الزمانية والمكانية:

وإن معرفة البيئة الزمانية والمكانية ضرورية لفهم الواقع والأحداث، وسلوك الأشخاص، وتقدير القيم التي يمثلونها. فالعصر الجاهلي مثلاً في مبادئه، غير العصور الإسلامية في قيمها الروحية ونظمها السياسية والاجتماعية، كما إن بيئة الريف غير بيئة المدينة، والحياة في الشرق غيرها في الغرب، والكاتب الناجح هو الذي يلتزم في عرض الأشخاص والأحداث بالمقومات العامة للبيئة (١).

(٢) تأثير البيئة في الحياة :

لقد أثرت البيئة الجاهلية مثلاً بمظاهرها المختلفة، في نفسية الشاعر الجاهلي، فحرّكت وجدانه، فانطلق لسانه مصوراً خلجات نفسه، ونبضات حسه في شتى المناسبات. فجاء الشعر الجاهلي حافلاً بمختلف العواطف الإنسانية، ومن يطلع على هذا الشعر يجد أنهم تغنّوا بطيب أعراقهم، ومكارم أخلاقهم، وأشادوا بأبطالهم وخلدوا أيامهم وأمجادهم، وتعالوا بما أحرزوه من نصر وغنائم، وغالوا في الحديث عن هزائم أعدائهم (٢).

لذلك فإن لغة العربي في العصر الجاهلي تختلف عن لغة العربي في العصر الحاضر. ((من حيث تغير بعض الدلالات وتطورها، واختفاء بعض الكلمات وظهور

(١) ينظر في تاريخ الأدب الجاهلي، علي الجندي، مكتبة دار التراث، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م: ٣٤٣/١.

(٢) قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار، محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية: ٢١٥.

غيرها. كذلك فإنّ بعض الألفاظ تشيع في بيئة معينة، وتكون مستساغة ومقبولة في هذه البيئة فيما لا تكون كذلك في بيئة أخرى ((^(١).

فقد حصرت البيئة الجغرافية مثلاً لأعراب البادية مواردهم الطبيعية في المراعي، فأنحصرت ثروتهم في قطعان من الإبل والغنم، وكانت الإبل مقياس ثروتهم، فهي خير ما في هذه الثروة وقد سموها (النعم) وقد كان من عوامل سقوط اعتبار الفرد في الهيئة الاجتماعية أن تقوم المعز أو صغار الماشية في حياته مقام الإبل.

وبينما كانت الماعز مادة يشتق منها الساخرون من الهجائين عناصر سخريتهم، كانت الإبل مادة يشتق منها المادحون عناصر مدحهم. أما الغنم فليست بحيوان الصحراء الأول، لشدة حاجتها إلى المراعي، وقلة صبرها على الماء، ومن هنا كانت الإبل حيوان الصحراء الأول بلا منازع، والدعامة التي تقوم عليها ثروة أبنائها، وعلى حدّ تعبير الاقتصادي الحديث (الرصيد) الذي تعتمد عليه ميزانيتهم أو (العملة)، منها مهور نسائهم، وديات دمائمهم ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ (وسماً) خاصاً لإبلها تميّزها به، كما تتخذ كل دولة الآن وسمّاً خاصاً لنقدها^(٢).

كما عني العرب بالخيّل عناية فائقة، واهتموا بها اهتماماً بالغاً، ولقد أولوها منزلة عظيمة، فالعربي حينما يخاطب الفرس، كأنما يخاطب أعز أبنائه، ويتألم عندما تمرض، ويحاول أن يقيها في الحروب بجسمه، ويبذل لها من قوت عياله، ويؤثرها في البرد الشديد بلحافه^(٣).

إلا أنه من النقد من أشار إلى أن غزارة الشعر لا علاقة لها بخصب المكان فقبيلة عبد القيس مكثت في أخصب المواطن ولكن شعرها قليلاً مقارنة ببقاع أخرى تميزت بجذبها وكذا الحال ثقيف. بينما قبيلة الحارث بن كعب من زمانين مختلفين هما

(١) فن التحرير العربي وضوابطه وأنماطه، محمد صالح الشنطي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، حائل، ط٥، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م: ٥٩

(٢) ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، دار المعارف بمصر، ط٤:

(٣) ينظر: الخيل عند العرب، محمد الصالح آل إبراهيم، د. ت: ١٧/١.

الجاهلية والإسلام، ونجد أنهم كانوا قليلي الحظ من الشعر في الجاهلية ثم أصبح لهم في الإسلام (١).

وهذا لا يؤثر على بحثنا ؛ لأنّ الذي نهدف إليه من القول أن الأدباء العرب أقرّوا بوقت مبكر جداً وقبل ظهور المصطلحات الحديثة، على أثر البيئة، فابن البادية المقيم في الفلاة إذ يرى الجذب الغالب والطبيعة القاحلة الجرداء، والجبال الشم، والصخور الجامدة، والوعول الممتعة، لن يكون كابن الحاضرة المترفة الخصبة، يلقي العيش رقيقاً والملبس ناعماً، والمزارع ناضرة، والإخوان ظرفاء، إذ إن ذلك يطبع الذوق والشعور بطابعه (٢).

(٣) علاقة الإنسان بالبيئة:

فالعلاقة وثيقة بين الإنسان والبيئة، وليس هناك من ينكرها وقد أدرك ذلك الإنسان العربي منذ القدم، فالبيئة هي مهد الإنسان، وبها نشأ وترعرع، فهي ليس محلاً للذكريات والبكاء على الأطلال والآثار فقط، بل تمثل حياة ووجود الإنسان، وتحمل تأريخه عبر الأجيال، وربما تشكل اتجاهاته ونمط وجوده، وهي تمثل المسرح الذي يؤدي عليه دوره (٣).

والذي لا ريب فيه يستطيع الباحث أن يثق بقسم غير قليل من الشعر الجاهلي لما نراه بوضوح من أثر البيئة وحياة أهلها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية في أدب العرب وشعرهم: ((ولما كان الأدب تعبيراً عن البيئة والإنسان، فقد جاء الأدب الجاهلي ابن بيئة يمثلها في الفطرة والبداهة الشائعتين في أغراضه ومعانيه

(١) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط ٤ -

١٩٨٣م: ٩٦/١.

(٢) ينظر: الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٢ - ٢٠٠٣م: ١٣٠.

(٣) ينظر: الإنسان والبيئة: ٥٧ .

ولغته وتصاويره، وكان الشاعر في هذا العصر لا يحاول تأليف معانيه، وإنما يرسلها إرسالاً يخلو من الترتيب ((^(١)) وهكذا في العصور اللاحقة في العصر الجاهلي.

المبحث الثاني: البيئة والمحيط

١) البيئة والمحيط:

وإذا كانت البيئة هي كل ما يحيط بالإنسان من الطبيعة والمخلوقات وربما يجد الإنسان فيها كل ما يحتاجه، وربما يتأثر بذلك نفسياً واجتماعياً، فإنّ شيخ الأدب الجاحظ ذهب أبعد من ذلك في مسألة مهمة في اختلاف ألوان الناس، فيرى أنّ الله لم يجعل السودان سوداً، والبيضان بيضاً، وإنما البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها، هي التي تحيل ألوانهم، أو تصبغ جلودهم بألوان مختلفة، فيقول على لسان السودان، إن الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا، ولكن البلد فعل ذلك بنا والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سوداً كبنو سليم بن منصور. وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود. وقد يأتي بنو سليم برعاة من الروم البيض فلا يمضي ثلاثة أجيال حتى يصبحون سوداً، ثم إن جميع الحيوانات التي تعيش في الحرة من نعام وهوام وذئاب وثعالب وشاء وحمير وخيل وطير سود، وثمة دليل آخر على أثر البيئة في تشكيل الألوان هو أننا نرى جراد البقل وديدانه خضراً، كما نرى قمل الرأس الأسود سوداء، وقمل الرأس الأشيب بيضاء. وينتهي الجاحظ إلى القول: والسود والبياض إنما هما من قبل خلقة البلد وما طبع الله عليه الماء والتربة، ومن قبل قرب الشمس وبعدها، وشدة حرها ولينها، وليس ذلك من قبل مسخ أو عقوبة، ولا تشويه ولا تقصير^(٢).

كما أقر الجاحظ أيضاً تأثير البيئة على خلق الناس وأخلاقهم ولغاتهم وعواطفهم وصناعاتهم^(٣).

(١) شرح المعلقات السبع، حسن بن أحمد حسين الزوزني، أبو عبد الله، دار احياء التراث العربي،

ط ١ - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م: ٨.

(٢) ينظر: الرسائل السياسية، عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، ج

١: ٥٤

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٣.

٢) تأثير البيئة في الأديب:

ومع تقادم الزمن تمتد تأثيرات البيئة في المحيط والعاملين فيه وهذا الذي أشار إليه النقاد أيضاً، فتأثير البيئة مثلاً على الكاتب المعروف ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد نشأ في البيئة المليئة بالعطر والورود والأوفياء، وأمضى سحابة شبابه مستمتعاً بطبيعة بلاده، وأجوائها المساعدة على النظم واللهو والغناء، وكانت المسارح للمغنيات والقيان اللواتي كن يفتنن إلى هناك، وقد استأثرت قرطبة باستقبال رواد هذا الفن، كما تفرّدت قرطبة بالعلم والفقهاء وأصبحت عاصمة الأدب وحاضنة لعلوم الدين.

وكان طبيعياً أن يتأثر ابن عبد ربه بطبيعة البلاد، ويسير تلك الموجة العارمة من الطرب واللهو، كما نستشفه من خلال شعره المبعوث في ثنانيا عقده. بينما نلاحظ كيف طرق باب الفقه خلال العقد الرابع من عمره ^(١) عندما ابتعد عن أجواء اللهو.

وكانت البيئة تعمق خصائصها في الخلق وطرق الحياة، وكان الاختلاط بأمم بعيدة يدعو " إلى الابتعاد عن المشرق في الزي وروح الفروسية والعادات واللهجة والأمثال " ^(٢).

فالإنسان على أية حال، يحاول استثمار المقومات المحيطة به في البيئة، وهي تؤثر فيه بجميع الأحوال ويستطيع الباحث أن يقرر بكل تواضع بأن الأدب العربي كائن حي متجدد الحيوية متجدد الحرارة ((وله كيانه وشخصيته، مثلي ومثلك، إنها شخصية ممثلة بالقوة، ولكنّها شخصية أميز ما فيها أنها مرنة، وليست صلبة جامدة)) ^(٣) والإنسان يتكيف بحسب البيئة التي يوجد فيها، وهذه القدرة على التكيف مرجعها إلى المرونة، وهي كلما اختلفت عليها الأزمنة والأمكنة راحت تتكيف مع البيئة الجديدة ((ولولا هذه القدرة على التكيف، ولولا هذه المرونة التي تتمتع بها شخصياتها - على

(١) ينظر: العقد الفريد: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب المعروف

بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ - ١٤٠٤هـ، ج ١، المقدمة: ٣.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج ١

- ١٩٦٠م: ٢٩/١.

(٣) الأدب وفنونه، دراسة ونقد، عز الدين اسماعيل، دار الفكر العربي: ١٧.

تفاوت بينها في أنصبتها من هذه المرونة - لوجدناها تنقرض وتزول، فالشخص لا يعيش إلا بما في شخصيته من مرونة يواجه بها ظروف الحياة فيتكيف معها، ويتغلب بذلك عليها، ويستمر بعد كل محنة في وجوده الحي النابض، وتزداد بذلك شخصيته قوة على قوة.^(١)

٣) مطابقة تصوّر العالم وتصور الأدباء العرب:

وإذا أقر العالم مفهوم البيئة بأنه كل شيء يحيط بالإنسان في مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية في مدينة ستوكهولم السويدية ١٩٧٢ وبأنّ هذا القرار يمثل انعطافاً في علاقة الإنسان بالبيئة إذ حدد العلماء في هذا المؤتمر مفهوم البيئة بأنها تعني الإنسان والطبيعة وهي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته^(٢).

فهذا المفهوم يأتي مطابقاً لتصوير الأدباء العرب، ومع هذه المؤثرات فقد تتواضع بيئة ما على استحسان لون جمالي، وربما كان عادياً جداً وابتداءً من سلّم الارتقاء الجمالي. إلا أن تأثير البيئة يجعل الناشئين فيها يقتبسون منها الأذواق الجمالية، فيتأثرون بأحكامها الناقصة، أو أحكامها التي لا تتم عن ذوق رفيع، وكذلك البيئات الراقية تمنح الناشئين فيها أذواقاً رفيعة والبيئات تتفاوت تفاوتاً كبيراً في هذا المجال^(٣)، وينعكس ذلك على الأدب لأنه مرآة العصر ويتأثر بالظروف المحيطة.

٤) الأديب العربي والبيئة الطبيعية:

وتأسيساً على ذلك فإن البيئة هي الإنسان والطبيعة، والأديب العربي عرف ذلك بحسه، قيل لأكمه: (ما تشتهي ؟ فقال: أن أرى وجه السماء، فقيل: وكيف اخترت ذلك ؟ فقال لقوله تعالى: ﴿ وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ﴾ (فصلت: ١٢) فهل شيء

(١) الأدب وفنونه - دراسة ونقد ، عز الدين إسماعيل - دار الفكر العربي : ٢٧.

(٢) ينظر: الإنسان والبيئة: ٤٩.

(٣) ينظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني الدمشقي، دار القلم، دمشق،

الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م: ج ١ : ٢٧.

أحسن مما يخبر الله عز وجل أنه زينة ؟ ونظر أعرابي إلى السماء فقال: سبحان الذي أدى حواشيك إلى غير علاقة، ووكد أعاليك بلا تسنم، وأقل أسافلك بلا عمد ((^(١)).

وعن الشمس يقول الشاعر ابن الرومي:

شمسٌ تسائرنا وقد بعثت ضوءاً يلاحظنا بلا لهبٍ^(٢)

وعن الهلال يقول الشاعر ابن المعتز في وصفه:

فكأنه القنديلُ باتَ معلّقاً تحت الدجى بسلاسلٍ من عنبرٍ^(٣)

فالبيئة هي الطبيعة المحيطة بالإنسان فعلاً ، وكان العربي له الحكايات والرؤيات مع الشمس والقمر ، ولها التأثير المباشر حياته ، ويقدر أثر ذلك على طبيعة الحياة ، فيأتي الوصف أيضاً في غاية الروعة والجمال كذلك التأثير للشمس والقمر وكذلك لاعتزازهم بهما .

ومعرفة النجوم:

قيل لأعرابي: أتعرف النجوم ؟ قال: وهل يجهل أحد سقف بيته^(٤) .

فكأن هذا الأعرابي في إجابته لمسلمات يعرفها ويدركها دليل التصاقهم التام بالطبيعة، وهم على وعي تام بالبيئة المحيطة بهم.

وشبه امرؤ القيس النجوم بقوله:

نظرتُ إليها والنجوم كأنها مصابيحُ رهبانٍ تشبُّ لقفالٍ^(٥)

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، اعتنى به د. سجيح الجميلي: ٢٠١/٤.

(٢) ديوان ابن الرومي: ١٤٧.

(٣) شعر ابن المعتز، صنعة أبي بكر بن يحيى الصولي، دراسة وتحقيق: الدكتور يونس أحمد السامرائي، العراق، وزارة الثقافة والفنون، سلسلة كتب التراث (٦٤) دار الحرية، ١٣٩٨هـ - ٣٠١/٣م: ١٩٧٨.

(٤) محاضرات الأدباء: ٢٠٦/٤.

(٥) ديوانه: ١٣٧.

ظلمة الليل:

قال بعض الأعراب: خرجت في ليلة حندس قد أَلقت على الأرض أكارعها
فمحت صور الأبدان، فما كنا نتعارف إلا بالآذان (١).

كما وصف ابن المعتز قوس قزح فقال:

لقد نَسَجَتْ أيدي الجنوبِ مطارفاً على الأفقِ دُكناً والحواشي على الأرضِ
كأذيالِ خودٍ أَقبلتْ في غلائِلِ مصبغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضٍ (٢)

ويتحسسون الهواء دائماً، فقد سئل بعضهم: كيف كان الهواء البارحة ؟ قال:
مات ولم يكن له نفس، سدت الرياح فانسدت طرق الأرواح (٣).

وانتبهوا إلى شدة الريح لأنهم يتأثرون بها فيقول الشاعر الفرزدق:

وَرَكِبْ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عندهُمْ لها تِرَةً من جذبها بالعصائبِ (٤)

وكذلك البرد الشديد فقد جاء في وصفه عند الراغب الأصفهاني: إذا أصبحت
الأرض نديّة، والسماء نقيّة، والريح شاميّة. وإذا دمعت العينان، وقطر المنخران ولجلج
اللسان (٥).

وفي وصف البرق: (برق كبعض العرق، وخفق القلب وبطن شجاع يضطرب.

ولمع المرائي في أكفّ الكواعبِ، وكسلاسل تبر) (٦).

وفي وصف السحابة يقول الشاعر ابن المعتز:

زفت إلى الروضِ وهو يأملها وجنح ليلٍ كالقارِ معتكِرُ (٧)

(١) محاضرات الأدباء: ٢١١/٤.

(٢) ديوانه: ٢٩٣/٣-٢٩٤.

(٣) محاضرات الأدباء: ٢١٤/٤.

(٤) ديوانه: ١٣٠.

(٥) محاضرات الأدباء: ٢١٧.

(٦) محاضرات الأدباء: ٢٢٢.

(٧) ديوانه: ٥٧٧/٢.

وعن جريان ماء الوديان يقو الشاعر المتنبي:

كأنّها والرياحُ تضربُها جيشاً وغي: هازمٌ ومنهزمٌ (١)

البئر: ولا تخفى أهمية البئر عند العرب وأثرها في حياتهم فيقول الرفاء:

بئر كأنّ رشاءها في مائها سمراء قد ركضت إلى مرآة (٢)

الفصول الأربعة:

فكان التصاق العرب بالبيئة وثيقاً وكانوا على وعي تام بإحساسهم مع تقلب

الفصول فيقول الصنوبري:

إذ كان في الصيفِ ريحانٌ وفاكهةٌ فالأرضُ متوقدٌ والجو تنورُ
وإن يكن في الخريف النخلُ مختزفاً فالأرضُ عريانةٌ والجو مقررُ
وإن يكن في الشتاء الغيثُ متصلاً فالأرضُ محصورةٌ والجو مأسورُ
ما الدهرُ إلا الربيعُ المستنيرُ إذا أتى الربيعُ أتاكَ النورُ والنورُ
الأرضُ ياقوتةٌ والجو لؤلؤةٌ والنبثُ فيروزُ والماءُ بلورُ (٣)

فكان تفضيله لفصل الربيع على سائر الفصول والأزمنة، وارتياحاً لهم من الهم

والحزن.

وكان عندهم تشبيه المحبوب بالرياحين وتذكره بها كما يقول البحري:

لما مشينَ بذِي الإراكِ تشابهتُ أغصانَ قضبانٍ به وقدودِ
في حُلَّتِي حَبِرٍ وروضٍ فالنقى وشيان: وشي ربي وشي برودِ (٤)

ودعا الشاعر إلى تغير المواقع من أجل الراحة النفسية، وهي تمثل علاقة

الإنسان بالبيئة التي يعيش فيها وعندما تكون مألوفة رتيبة يدعو للتغير:

فيقول أبو تمام:

وطول مقام المرء في الحي مخلقٌ لديباجتيهِ فاغتربُ تتجددِ

(١) ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م: ٦٥.

(٢) ديوانه: ١١٣.

(٣) ديوانه: ٤٢.

(٤) ديوان البحري، شرح وتقديم حنا الفاخوري، دار الجبل، بيروت، د.ت: ٣٥١/١.

فإني رأيت الشمس زيدت محبةً على الناس إذ ليست عليهم بسرمدٍ (١)
وظهور الورد وتفتحه وتلطيف أجواء البيئة:

يقول البحتري:

وقد نبّه النوروز غلس الدجى أوائل وردٍ كنّ بالأمس نوماً
يُفَنِّقُها بردُ الندى فكأنه يبتُّ حديثاً كان أمسٍ مكثماً (٢)
ومن أقوال المأمون: لقد نظر الورد بعين جليلة فينبغي أن نعينه على هذه
المروءة (٣).

وتمتد العلاقة بين الشاعر العربي والمحيط لتشمل نواحي الحياة الأخرى، ففي

وصف السفينة يقول البحتري:

ورمت بنا سمت العراق أياقٍ سُحْمُ الخدودِ لغامهِنَّ الطُّحْلُبُ
من كلِّ طائفةٍ بخمسٍ خوافقٍ دُعِجْ كما دُعِرَ الظِّلْمُ المهذبُ (٤)
كما يصف أبو نؤاس الزورق فيقول:

سَخَّرَ اللهَ للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب (٥)

(٥) البيئة والمدن:

إن المتابعة الدقيقة والتقصي الشامل لأحوال البيئة عند العرب في وصف المدن،
دليل اهتمامهم وتأثرهم بالبيئة، وسعة علمهم، وكأنها تأتي من العلماء المختصين في

(١) ديوانه: ١٠٠.

(٢) ديوانه: ٤٢٢/٢.

(٣) محاضرات الأدباء: ٢٤٤/٤.

(٤) ديوانه: ٥٧/١.

(٥) ديوانه: ٧١.

العوامل البيئية، وتأسيساً على هذه المتابعة تأتي التوجيهات والإرشادات لاختيار الأفضل من الأجواء البيئية.

فقد قال الحجاج لابن القرية: صف لي البصرة ! قال: حرّها شديد، وشرّها عنيد، مأوى كل تاجر، وطريق كل عابر، قال: فواسط. قال: جنة حمأة وكمأة. قال: فالكوفة: قال: نقصت عن حر البحرين، وسفلت عن برد الشام فطاب ليلها وكثر خيرها. قال: فالشام، قال: عروس بين نسوة جلوس، أطوع الناس للمخلوق في معصية الخالق. قال: فخراسان ؟ قال: مأوها جامد وعدوها جاهد بأسهم شديد وحرصهم عتيد. قال: فكرمان قال: مأوها وشل، وثمرها دقل، وعدوها بطل، إن قلّ الجيش بها ضاعوا، وإن كثر جاعوا. قال: فأصبهان؟ قال في حاضرة من الأرض زائفة من الطريق الأعظم^(١).

واختيار بلد دون بلد: قيل: ((لا تقيموا ببلد ليس فيها نهر جارٍ، وسوق قائمة، وقاض عادل. وقيل: لا تبني المدن إلا على الماء والمرعى الخصب))^(٢).

وقيل (شؤم الدار أن تكون ضيقة فيكثر سخط مالکها ولا يرضى بما قسم له فيها، وشؤم الدابة أن لا تكون فارهة، وشؤم المرأة أن لا تكون موافقة))^(٣).

المدينة: وتسمى طيبة لأنّ من دخلها وأقام فيها وجد من تربتها وحيطانها رائحة، وأنواع الطيب تزداد بها طيباً. ولا تخفى قدسية هذه المدينة المباركة في نفوس وقلوب وعقول المسلمين عامة.

المبحث الثالث : تغيّر الشخصية الأدبية بتغيّر البيئة، البحري أنموذجاً:

بداوة وحضارة:

لقد نشأ البحري نشأته الأولى في البادية، فتأصلت فيه ملكة الأعراب وجرت على لسانه أساليبهم، وصفا خياله صفاء سمائهم. ثم حدث له أن اتصل في حمص بأبي تمام، شيخ الصناعة الشعرية. وأخذ عنه طريقته في البديع والزخرفة واحتك بالحضارة العباسية وعمرانها، فكان له من جرّاء ذلك، شخصية عجيبة التكوين.

(١) ينظر: محاضرات الأدباء: ٢٦٤/٤.

(٢) محاضرات الأدباء: ٢٦٧/٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٨/٤.

شخصية بداوة في شخصية حضارة، وصفاء بدوي في تعقيد حضاري. فكان شعره، يمثل بداوة بمسحة الحضارة، وكان الائتلاف بين الطبيعة، والصناعة، بين الفطرة والحضارة. وبين البادية والمدينة، وتناغم بين الصحراء المجدبة، والبساتين المونقة، وبين القفار الموحشة، والقصور الآهلة، وكان أثر ذلك في شعره الروعة، أنغام ونبرات، وقصائده حلقات مذهبات وكأننا في الجنان، لما أوتي من خيال خصب، غذته البادية والحضارة، فكان من البادية صفاء وجلاء، وكان له من الحاضرة أصباغ وأضواء. ثم هو يختلف بين البداوة والحضارة، على ما ذاع في عصره من مظاهر البيئة الجديدة فالبحتري بدوي في عصر الحضارة (١).

أما الطبيعة فله فيها لوحات كثيرة جمع فيها ألواناً من المباهج الفاتنة التي استأثرت بفؤاده، واستولت على حسّه طول حياته، كما له من الأوصاف في موضوعات متفردة من الطبيعة توصف الربيع، وتوصف المطر، بما فيه من سحب وبرق، ووصف النسيم وشقائق النعمان والرياض المزهرة العابقة بذى الأطياب وإلى جانب هذا كله، نجد عند البحتري أوصافاً بدوية تناول فيها بعض الحيوانات كالذئب والأسد والفرس وفي الوقت نفسه وصف العمران والقصور والسفن (٢).

كما وصف البحتري الذئب بأسلوب يتصف ببراعة التصوير، وروعة التعبير فيقول:

لَهُ ذَنْبٌ مِثْلُ الرِّشَاءِ يَجْرُهُ وَمَثْنٌ كَمَتَنِ الْقَوْسِ أَعَوَّجٌ مُنَادٌ (٣)
ذنباً طواه الجوع، فإزداد ضراوة وشراسة، وليس فيه من الوجود سوى عظم وروح وجلد:

يُقْضِضُ عُصْلًا فِي أَسْرَتِهَا الرَّدَى كَقُضْقُضَةِ الْمَقْرُورِ أَرَعَدَهُ الْبَرْدُ (٤)

(١) ينظر: مقدمة الديوان: ٥-٩.

(٢) ديوانه: ٣٧١/١.

(٣) ديوانه: ٣٧١/١، الرشا: الحبل، المتن: الظهر، مناد: منح.

(٤) ديوانه: ٣٧١/١، يقضض: يكسر العظام، العصل: الأنياب العوج، في أسرتها: في خطوطها، المقرور: الذي أصابه البرد وأرعه.

ذنباً يصكّ أنيابه بعضها على بعض لشدة هياجه، فيسمع لها صوت العظام
تتكسر، وفي تلك الأنياح موت وبوار، والمشهد، تمثيل تصويري صوتي ينقل الحقيقة
الواقعية أتم ما يكون النقل وأروعها:

سَمَا لي، وبِي من شِدَّةِ الجُوعِ ما بِهِ ببيداءٍ لم تُعرَفْ بها عيشةٌ رَغْدُ
كِلَانَا بها ذَنْبٌ، يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بصاحبه، والجدُّ يُتَعِسُهُ الجدُّ (١)
وكان الشاعر يريد القول، كلنا ذئاب، أو إذا لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب ولعل هذه
حقيقة الوجود، وهذا التصور هو في صميم البداوة، ولعله يقترب من التصوير الجاهلي
كما في قوله:

عَوَى ثم أَقْعَى، فارتجرتُ فَهَجْتُهُ فأَقْبَلَ مِنْهُ البرقُ يَتْبَعُهُ الرِّعْدُ (٢)
وفي وصف العمران نجده عندما زار إيوان كسرى في المدائن، وكان في حالة
من الهموم فيقول منفعلًا:

حَضَرْتُ رَحْلِي الهمومُ فَوَجَّهْ تُ إلى أبيضِ المدائنِ عَنَسِي
أَتَسَلَّى عَنِ الحُطُوطِ، وآسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرْسِي
عُمِرْتُ للسرورِ دَهْرًا، فصارت للتعزّي، رباعُهُم والتأسي (٣)
فيبدأ يتأمل ويعتبر، ويبتعد عن نهج الشعر القديم، متجهًا إلى الحياة وملامساتها
بنزعة فلسفية تتمشى مع روح العصر الذي عاش فيه.

وكانَ الزَّمانَ أَصْبَحَ محمولاً هَوَاهُ مع الأَخَسِّ الأَخَسِّ
ذَكَرْتَنِيهِم الخطوبَ النَّوَالِي ولقد تُذَكِّرُ الخطوبُ وتُنْسِي (٤)
وهكذا كان البحري شاعر البداوة والحضارة في العصر العباسي، تبعاً لتغير
البيئة وتنقله من بيئة إلى أخرى وقد مال البحري إلى الطبيعة بحسه وقلبه بنزعة
عباسية على بداءته البدوية فيقول:

(١) ديوانه: ٣٧١/١.

(٢) ديوانه: ٣٧١/١.

(٣) ديوانه: ١٩/٢.

(٤) المصدر نفسه، والجزء والصفحة.

نَسَجَ الربيعُ لِرَبْعِهَا دِيبَاجَةً من جَوْهَرِ الْأَنْوَارِ بِالْأَنْوَاءِ (١)
بَكَتِ السَّمَاءُ بِهَا رِذَاذَ دُمُوعِهَا فَعَدَّتْ تَبَسُّمٌ عَنْ نَجُومِ سَمَاءِ
فِي حُلَّةٍ خَضِرَاءَ، نَمْنَمَ وَشِيَهَا حَوَّكَ الرِّبْعِ، وَحُلَّةَ صَفْرَاءِ (٢)

الخلاصة

إن العلاقة بين الإنسان والبيئة التي تمثل الطبيعة المحيطة به بكلِّ أحوالها، تُعد علاقة متداخلة لا يمكن انفصالها، وكل منهما يؤثر بالآخر. فلا يمكن أن نتصور الأديب العربي بمعزل عن البيئة، بل انتبه إلى ذلك، وحصل التفاعل بينهما. واليوم نجد التوجهات في جميع العالم تخشى من التأثير السلبي في هذه العلاقة من قبل الإنسان تجاه البيئة. فعمدنا إلى إظهار تنبه الأديب العربي إلى البيئة المحيطة به، وفي الإطار العام هو تمشياً مع الاهتمام العالمي في موضوع البيئة. لذلك جاء الاهتمام بالبيئة من خلال الأدب والمناهج الدراسية أخيراً ((بهدف تنشئة أجيال بعقول جديدة تعي مفهوم الثقافة البيئية وتعمل على تطبيقها... ويمكن إحداث تغييرات في طرق التفكير والسلوك البيئي عند المجتمع بحيث يتصرف كل شخص فيه وكأنه صاحب قرار ناضج)) * . وهنا يكون للأديب العربي أثره في التوعية، ويكون للأدب رسالة تواكب تطور الحياة، ويتفاعل مع الأحداث والمستجدات. لذلك فإن افتتاح ملتقى ((البيئة في الأدب واللغة)) بجامعة الدمام يوم ١٤٣٢/٤/٢٩ هـ، يُعد مبادرة رائعة تحسب لأدبنا العربي .

(١) الأنواء: النجوم المائلة إلى الغروب، والأمطار، يقولون ((صَدَقَ النَّوْءُ)).

(٢) نمنم وشيها: زخرف زينتها. ديوانه: ٢٤/١.

* مدونة ديوان العرب - منبر حر للثقافة والفكر والأدب.

<http://www.diwanalarb.com/spip.php? article 1 4887>.

الثقافة البيئية، البعد الغائب، ٢٩/تموز /٢٠٠٨ بقلم بشير خلف، الجزائر.

ونرجو الله أن يمدّ أدباء العرب بأسباب التقدم والازدهار الفكري وبما يخدم البلاد والعباد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خيرته من خلقه محمد رسول الله وآله وصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

المصادر والمراجع

- الكتاب المنزل (القرآن الكريم).
- الأدب وفنونه، دراسة ونقد، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، د.ت.
- الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٢، ٢٠٠٣م.
- الإنسان والبيئة (رؤى بيئية تربوية) د. عبد المجيد حميد الكبيسي، دار الإحصار العلمي، ط ١، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، الأردن، عمان.
- البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حنكة الميداني الدمشقي، دار القلم، دمشق الدار الشامية، بيروت، ط ١ - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ١ - ١٩٦٠م.
- تاريخ النقد العربي عند العرب، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط ٤ - ١٩٨٣م.
- التحرير العربي، د. حسين علي محمد حسين، مكتبة العبيكان، ط ٥ - ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- الخيل عند العرب، محمد الصالح آل إبراهيم، د.ت.
- ديوان ابن الرومي: أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، تحقيق الدكتور حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ج ١، ط ٣ (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- ديوان أبي تمام الطائي: حبيب بن أوس، فسر ألفاظه اللغوية ووقف على طبعه محي الدين الخياط، د.ت.

- ديوان أبي نؤاس، شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ت.
- ديوان البحتري، شرح وتقديم حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- ديوان السري الرفاء، تقديم وشرح كرم البستاني، مراجعة ناهد جعفر، دار صادر بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٦ م.
- ديوان الصنوبري: أحمد محمد بن الحسن الضبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت لبنان، ط ١ - ١٩٩٨ م.
- ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ديوان المتنبي، دار صادر بيروت، ط ٥، ٢٠٠٨ م.
- الرسائل السياسية، بحر أبو عثمان الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت.
- شرح المعطيات السبع، حسن بن أحمد حسين الزوزني، أبو عبد الله، دار احياء التراث العربي، ط ١ - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، دار المعارف بمصر، ط ٤.
- شعر ابن المعتز، صنعة أبي بكر الصولي، دراسة وتحقيق الدكتور يونس أحمد السامرائي، العراق، وزارة الثقافة والفنون، سلسلة كتب التراث (٦٤)، دار الحرية.
- العقد الفريد: أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- فن التحرير العربي وضوابطه وأنماطه، محمد صالح الشنطي، دار الأندلس، للنشر والتوزيع، السعودية، حائل، ط ٢، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م.

- في تاريخ الأدب الجاهلي، علي الجندي، مكتبة دار التراث، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- قصة الأدب في الحجاز: عبد الله عبد الجبار، محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية.
- لسان العرب لابن منظور، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ، ط ١، بيروت، لبنان.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصبهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، اعتنى به سجيح الجميل.